

## طرق العودة

لقد التقيت آخر مرة بالكاتب الروائي السوداني المرموق الصديق الاستاذ الطيب صالح فى شيراتون صنعاء .. عندما كنت أشارك فى فعاليات المؤتمر الرابع لاتحاد الاطباء النفسانيين العرب المنعقد فى الشقيقة اليمن - صنعاء فى ديسمبر 1989.

وكان يتوج باقة اللقاء بعض الأسماء اللامعة أمثال الأخ الحميم و الصديق القديم الشاعر المنفرد و الدبلوماسى المتمرد سيد احمد الحردلو .. واستاذى الجليل .. البروفسير علي فضل المدير السابق والعميد الأسبق لكلية الطب بجامعة الخرطوم و الأستاذ بجامعة صنعاء .. والأديب والشاعر المبدع الدكتور عبد العزيز المقالح مدير جامعة صنعاء من اليمن الشقيق.

وكانت أطول جلسة وفاء مع أخوان الصفاء .. مزيجا من الأدب والسياسة .. وهل يعقل ان يلتقى سودانى ويمنى فى أى بقعة من بقاع العالم دون الحديث فى السياسة .. والأدب .. أو هكذا قال لى رئيس المؤتمر من الدولة المضيفة الدكتور عبد المجيد الخوليدى استاذ الطب النفسى بجامعة صنعاء: إن المثقف بلا سياسة مبتور .. والسياسى بلا ثقافة موتور. وعليك ان تختار بين الأثنين.

وقد سبقت لنا لقاءات مع الأديب الروائى الطيب صالح فى قطر عندما كان يؤطر للثقافة فى "مجلة الدوحة" مع البروفسير محمد ابراهيم الشوش .. وقبلها فى لندن مع الفنان الأستاذ ابراهيم الصلحى داخل السفارة السودانية فى السبعينات.

وقد شاهدته آخر مرة فى الأسابيع الأخيرة فى برنامج تلفزيونى فى قناة النيل الأزرق - التى تحاول جاهدة إعادة التوازن فى ميزان الإعلام السودانى - فى سهرتين متباعدتين وحول موضوع واحد .. يختلف فى مداراته .. ويتعدد فى مساراته و لكنه يصب فى بؤرة اهتمام مقدم البرنامج حول .. متى العودة ؟ .. والطيب صالح .. له صوت مريح .. ونبرة هادئة .. تنساب فى حاسة السمع همسة .. بعد همسة .. غير هادئة ولا نافرة .. ووتيرة ليست متهدجة ولا متشددة تتوالى قطرة فى اثرقطرة.

وقد طرح السؤال حول الهجرة من خلال الحديث عن رواية (موسم الهجرة الى الشمال) والمعنى المجازى .. متى تعود الطيور الى الجنوب بعد هجرتها الى الشمال وماذا أعطتك الغربية وماذا أخذت منك ؟ وأخيرا .. متى تعود ..؟

لقد استمعت الى مضمون الحوار فى حلقتين لا تفصل بينهما الا المساحة الزمنية التى تجعلك تتأمل رجوع اللقاء الأول من خلال رنين اللقاء الثانى .. وهذا ما جعلنى اتسمر فى مقعدى طوال الحلقة .. وأجتر ذكرياتى معه فى لقاء شيراتون صنعاء .. ومداخلات الشاعر الحردلو .. والبروفسير علي فضل والدكتور عبد العزيز المقالح وكلهم عاش تجربة الإغتراب بدوافع شتى .. وقد تبدو مختلفة ان لم تكن متناقضة .. ولم يعد أحد منهم نهائيا الى الوطن بدافع واحد يجمع ما بين السبب و النتيجة و حتى الذى عاد ظل مغتربا فى الداخل .. ولماذا عاد البعض وبقى الآخر؟ ربما الأصل ان نقول ان احداً لم يغادر وطنه روحياً ونفسياً وان تركه ماديا وجسدياً لأن قاموس الغربية والإغتراب ملئ بالتعريفات .. وسيكولوجية الإغتراب حافلة بالمعانى والدلالات وقد كتبت حول هذا

الموضوع فى كتاب " أضواء على النفس البشرية" ،الفصل الأول: قضايا الأعتراب - دار الثقافة- بيروت عام 1987 ص- 15 - ، حتى لا يطول حديثي فى هذه العجالة .. وحتى أوثق لما أقوله فيها منذ أن غادرت السودان متسائلاً كما يقول الشاعر:

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم

فالذين ظلوا على صلة بالداخل ولم يتوهموا الجنة فى الخارج .. فهم الراحلون وهم هنا والعائدون وهم هناك. يقينى أن الروائى الرائع الأستاذ الطيب صالح فى الحلقة الأولى .. كان مسترخياً .. و عفويًا .. متهيئاً نفسياً للقاء .. غير متوجس من هدف الأسئلة، ولكنه أراد ان يفضل راحة المشاهد النفسية على معاناتة الشخصية حين قال: لعلمك يا بنتى انا ما زلت أحتفظ بالجواز السودانى رغم ما يسببه لى من متاعب فى كل المطارات .. أما العودة " فالقدم ليه رافع " .. وفى تراثنا الإسلامى ومفهومنا الشعبى ان هذه العبارة هى قمة الايمان و أرقى فنون التخاطب عندما لا تريد ان تعطى الاجابة التى ترضيك وقد لا تريح الطرف الآخر .. ولكنه اعتراف ضمنى بانك تملك نصف الاجابة و لكنك توكلت على الله فى الكل.

ولكنه فى الحلقة الثانية كان يبدو متمملاً فى جلسته .. مجاملاً فى ابتسامته... متوجساً فى اجابته، قال : لماذا تفترضين ان الذى اغترب عن الوطن لاسباب شخصية أو سياسية أو دينية قد انسلخ عن جلدته وهجر عشيرته .. أو ترك الوطن وهو متقل بجراحاته .. مغموس فى ذكرياته .. ليل نهار .. ؟ ولينته كرر معى مقولة الامام على بن أبى طالب عند ما قال: الانجاز فى الغربية وطن وعدمه فى الوطن غربة. وفى اجابة على سؤال متى تعود، شعر بان السائل ربما أراده أن يكون اكثر دقة من اجابة الحلقة السابقه .. فقال: فى هذه المرحلة من العمر .. قد يبدو قرار العودة نهائياً صعباً وان عدة ظروف تحكم هذا القرار .. ولكننى قد اكنفى بالزيارات المنقطعة والتواصل الروحى والنفسى مع الوطن.

وعندما سألته المذيعة عن مهرجان (الخرطوم عاصمة الثقافة العربية) .. دافع بحرارة شديدة عن الفكرة... و أكد على أهلية الخرطوم لهذا اللقب.. و قد أكون كأحد المشاهدين للحلقة .. وكأحد ابناء السودان الذين يحسبون أنفسهم افراداً فى قبيلة الثقافة .. وكصديق قديم للروائى المجدد .. دهشت عندما سمعته يقول انه ليس مشاركاً مسئولاً فى هذه التظاهرة .. ولكنه سيحضر .. وهو يرى فيها بشارة خير للوطن .. تحمل له فرصة ذهبية ليضع إسمه على خريطة الثقافة الافريقية باللون الذى يعجبه وبالجم الذى يراه .. ويمكنه ملأ الفراغ فيه عن جدارة واستحقاق.

إذا كان الطيب صالح وفى تصفيات هذا الأولمبياد "الهوية السودانية"، مازال يقف خارج سور الأستاذ يبحث عن تذكره اكرامية أو مدفوعة الأجر للدخول .. وليس ضيف شرف .. أو على وجه الدقة ليس لاعياً رئيسياً فى تشكيلة الفريق الذى يخوض مباراة الدور قبل النهائى فى بطولة "الهوية السودانية" التى تجرى الآن على كل الاصعدة الثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية وفى شتى الميادين فى إنتظار نتائج المباريات الأخرى التى تقام فى استادات أخرى على صعيد مباريات.. (السلام .. والسلطة .. والثروة .. و البترول .. والثقافة).

وتتزامن هذه المباريات بحضور تحكيم دولى مباشر وغير مباشر .. فاننا نحتاج الى حشد الطاقات من سفراء النوايا الحسنة بالداخل والخارج ليمثلوا السودان فى هذه المباريات ليكون لنا وقع حسن فى نفوس العالم الخارجى والذى يترقب فى فضول شديد نتيجة هذا الأولمبياد الكبير فى قلب افريقيا النابض بالحياة .. او المرشح لهذا الموقع الجغرافى الفريد و المتميز فى النظام العالمى الجديد.

فإذا كان تقويم الأداء بالقياس وتقويم النتائج بالمقدمات .. فأمل أن تعيد كل الجهات المشرفة على تنظيم هذا الأولمبياد .. حساباتها في وضع المعايير الدقيقة و العادلة في تمثيل السودان وتحديد الأهداف على كل صعيد .. وان يكونوا قادرين على استشراف الغد .. وقراءة المستقبل .. واستقراء النتائج من حصيلة الواقع الذي يجرى الآن .. في موازنة عقلانية لما هو كائن وما ينبغي ان يكون . حتى تكون العودة نهائية.. وطوعية .. من كل الاعمار .. وفي كل الأقطار .. للكثيرين الذين يترقبون في انتظار .. لاتخاذ القرار... وإن اختلفت طرق العودة.

ولنا عودة بأذن الله

دكتور الزين عباس عمارة - أبوظبى